٨ـ تأويل مشكل الحديث

ـ وقد أكثر ابن قتيبة رحمه الله من هذا النوع ، وذلك لانشغاله بأمور المنطق ، ولكثرة لقائه بالطاعنين في عصره من المعتزلة ، ولم يكن فقيهاً حتى يُعنى أكثر مما رأينا بالاختلاف بين حديثين .

وهذا النوع أي إثارة المشكل هو الأكثر حضوراً وشيوعاً عند الطاعنين في السنة في عصرنا لأن الاختلاف بين الحديثين يحتاج إلى إحاطة منهم ، ونشك في أنهم قادرون على الإتيان بحديثين متضاربين على زعمهم في موضوع واحد ، ذلك لضحالة ثقافتهم ، إنما رفض الحديث الواحد يغلب أن يكون أسهل ، وهو من باب الإلحاد الهجومي .

نذكر طعنهم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين ، قال رسول الله ﷺ : « أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فلما جاءه صكّه ، ففقأ عينه ، فرجع إلى ربه ، فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، فردّ الله إليه عينه ، وقال : ارجع إليه ، فقُل له : يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة ، فقال : أي ربّ ثم مَهْ ؟ قال : ثم الموت ، قال : فالآن ، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحَجَر ، فقال رسول الله ﷺ : « فلو كنتُ ثَمَّ لأريتُكم قبره إلى جانب الطريق ، تحت الكثيب الأحمر » .

والمشكلات في هذا النص متعددة ، فلا يقتصر الأمر على فَقْءِ العين كما يتصوّر المبطلون ، فالضرب ظلم بين البشر ، فكيف يكون تجاه ملك من ملائكة الله ، خصوصاً أنه موصوف بالشدة لأنه مخصوص بالموت ، والإشكال الثاني أن مصدر الضرب نبي يهدي الناس للتي هي أحسن .

والإشكال الثالث أن موسى عليه السلام يستفهم ، فكأنه شاكٌّ في الموت وهو حقيقة لا مراء فيها ، إذ قال : ثم مه ؟

والإشكال الرابع أن ملك الموت يرى ظاهراً في الشكل والصوت .

والإشكال الخامس أن موسى عليه السلام لم يقبل بسنوات على عدد الشعرات ، مع أنه ظهر كارهاً للموت في بداية النص : « عبد لا يريد الموت » .

والجواب أن الله تعالى أرسل ملك الموت ، ولكن لما رأى حرص موسى عليه السلام على الحياة ، وخوفه من الممات ، ظن الملك أن الله يسأل بنيته مجرد سؤال في أجله فتركه وعاد ليقول : « أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت » .

ولما أثر فيه ما أصابه من موسى بحسب ظاهر الحديث رجع إلى ربه مشتكياً قبل أن يقوم بمهمته ، ولا مانع من أن يكون إرسال الملك على سبيل التخيير والتفويض ، وليس على سبيل الإيجاب والإلزام .

فالملك يعلم أن موت موسى عليه السلام في تلك الساعة ليس لازماً ، فظن موسى الأمر عادياً ، فلما صكّه علم أن موسى عليه السلام لا يختار الموت فتركه ، وهذا كما جاء جبريل عليه السلام في شكل رجل عادي ، وفي رواية قال له : « أجب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت » .

وقد تطاول بعض الأقزام في عصرنا ، فتطاول على هذا الحديث ، فقال مما قال : لعل عيسى يلطم عينه الأخرى ، فيغدو أعمى .

والضرب أكبر إشكال لكن يمكن أن يؤول من خلال العدول المجازي ، قال أبو بكر بن فورك[1] : « ومنهم من قال : إن معنى قوله :

---

(١) السنة المطهرة د . عتر ، ص/ ٨٠ وراجع منهج النقد ص/ ١٠٨ .

لطم موسى عين الملك توسع في الكلام ـ أي مجاز ـ وهو نحو ما يحكى عن علي رضي الله عنه أنه قال : (أنا فقأت عين الفتنة) يريد بذلك إلزام موسىٰ ملك الموت الحجة ، حين راده في قبض روحه . . . » .

ويقال في اللغة المحكية : كسر عينَه إذا أهانه ، وملأ عينه إذا كان كريماً ، وقلع عينه إذا أبدى له بذخاً مقنعاً ، ويقال فلان في عيني وعلى عيني إذا كان محبباً إلى النفس .

ويمكن تأويل الحديث وإزالة الإشكال بأن الضرب يقع على المثال ، إذ يتشكل الملائكة بأشكال مختلفة من خلال سرعة المقدرة الإلهية ، فالصور المثالية تتأثر بما تتأثر به الجسوم من الضرب والصدمات وغير هذا .

والتمثل معروف في الخبر الصادق، فالملائكة أجسام نورانية يشكلها الله بأشكال البشر أحياناً كما في الآية : ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ١٧]، أي غير ناقص الأعضاء ، ومنه الآية : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٤] .

وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام : « وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً ، فيكلمني فأعي ما أقول » ، بخلاف نحترز به هو أن موسى عليه السلام لم يدرك أنه ملك .

فلا يوجد ضرب حقيقي إنما إقناع وانتصار بالحجة ، فموسى لم يعرف أن كل نبي يُخير بين الموت والحياة : « إنه لم يقبض نبيٌّ قط ، حتى يُرىٰ مقعده في الجنة ، ثم يخير » [متفق عليه] ، فلما جاءه الملك من غير أن يخيره ألزمه الحجة والله عز وجل أراد أن يختبر موسىٰ عليه السلام في معرفته بالتخيير ، فرفض الموت حين لم يخير .

وصكه ؛ أي ضربه حيث لم يعلم ملكيته ، فضربه على أنه رجل عادي

اقتحم بيته . وقد عرف عن سيدنا موسى قوته العضلية ، جاء في القرآن عن قتله لواحد من الفراعنة بوكزة ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص : ١٥] إن أخذنا بالضرب على وجه الحقيقة .

كما عرف عنه الغضب ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ [الأعراف : ١٥٤] ، وعندما رأى قومه يعبدون العجل هجم على أخيه لما عرف عنه القوة والعنف ، فسجّل القرآن الكريم قول أخيه هارون ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ [طه : ٩٤] .

ومنه حديث السحر ، إذ ورد في الصحاح عن عائشة رضي الله عنها : « سحر رسولَ الأمة ﷺ رجلٌ من بني زُريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله ﷺ يُخيّل أنه كان يفعل الشيء وما فعله » .

احتج المنكرون بأن هذا كلام الكفرة كما سجّله القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان : ٨] .

ونقول : ورد في القرآن أنهم اتهموه بكونه ساحراً ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر : ٢٤] ، وهذا دليل اضطراب وعماية في الجدل لا أن السحر واقع منه أو عليه .

وعلى أية حال لم يتجاوز سحر لبيد اليومين ، وهذا بخلاف ما يقصده الكفرة من أن القرآن الكريم كله نابع من السحر ، وهذا يستغرق سنوات .

والمعروف أن النسيان كان جارياً على الأنبياء ، بدءاً من آدم عليه السلام ، قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥] .

كذلك جاء في الحديث النبوي قوله عليه الصلاة والسلام : « ذكّرني آية كنتُ أُنسيتها » أي لم يذكرها منذ بعض الأيام ولم تخطر بباله ، وهذا

واقع في الذهنية البشرية ، ويحدث أن يذكرنا شخص بشاهد قرآني في قضية ، فنستحسن تذكيره بالآية مع حفظنا لها .

كما جاء في الصحيحين قوله عليه الصلاة والسلام : « إنما أنا بشر مثلكم ، أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني » وهذا الحديث وسابقه إشارة إلى تكريمه عليه الصلاة والسلام لعقول الصحابة ، وهذا منهج جيد لتجربة الأساتذة مع طلابهم .

ومن خلال النظر الدقيق في النص نؤكّد أمرين : الأول أن غاية ما حدث من أثر السحر هو النسيان بدليل قولها : « حتى » فقمة فاعلية السحر هي النسيان ، فلا تخبّط هناك ولا ازدواجية ولا أي مرض نفسي .

ولهذا قال العلماء سابقاً : وقع السحر على المدركات العقلية لا على المدركات القلبية التي هي مهبط الوحي ، فهذا من حفظ الله سبحانه لرسالته كي لا يمسها أي تغيير فضلاً عن كونه إعجاز عن معنىٰ الآية : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ـ ٤] .

الأمر الثاني أن نسيان الرسول ﷺ في السحر الذي وقع له ، وقع في البيت لأمور بيتية ، وهذا ظاهر من رواية الحديث ، فهو لم يؤثر في المجتمع ولا في رسالته عليه الصلاة والسلام ، ولعله صدع حينها ولازم البيت كما يحدث من صداعه العابر في حياته الشريفة ﷺ .

ونقول للطاعنين : هذا الحديث لا يسجّل شرفاً لانتصار اليهود على نبينا عليه الصلاة والسلام ، بل يسجّل تحذيراً شديداً من اليهود الحاقدين الكفرة ، فالله عز وجل جعل نبيه ﷺ يستشرف المستقبل ليحذّر من كيد هذه الفئة الحاقدة وأخابيلها وعدوانها على الإنسانية جمعاء ، وهذه معجزة نبوية عايشها ﷺ بجسده .

وهناك حديث : « المؤمن يشرب في مَعىً واحد ، والكافر يشرب في

سبعة أمعاء » [متفق عليه] ، والمتناقض للعقل تلك الخلقة العجيبة .

وذُكِرَ السبب أن رسول الله ﷺ ضافه ضيف ، وهو كافر ، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فحلبت ، فشرب حِلاَبَها ، ثم أخرىٰ فشربه . ثم أخرى فشربه حتى شرب حلاب سبع شياهٍ ثم إنه أصبح فأسلم . فأمر له رسول الله ﷺ بشاةٍ فشرب حلابها . ثم أمر بأخرى فلم يستتمّها . فقال رسول الله ﷺ : « المؤمن يشرب في مَعىً واحدٍ . والكافر يشرب في سبعة أمعاءٍ » .

ولعلّ الناظر إلى سبب الحديث يترجح عنده وجود الأمعاء السبعة ، ثم خفاؤها ، لكن النبي ﷺ لم يخبرهم بهذه العملية الجراحية ، والعربي الفصيح يدرك أن الأكل هنا يتجاوز الطعام إلى سائر ملذات الدنيا من سكن ومال وضياع .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] الآية ، ولعل الأمر يقتصر على سرقة محل ليتم من خلال الورق الرسمي ولا وجود للأكل ، فالقول مجازي ، أما العدد سبعة فهو تكثيري ، بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] فإن استغفر لهم إحدى وسبعين مرة أو أكثر لم يغفر لهم .

وغرابة الأمعاء السبعة وقبحها يصوّر غرابة الكفر عن نواميس الكون وقبحه في الحياة .

ولنتصور من أمسىٰ كافراً وأصبح مؤمناً ، هل يهجم على الطعام ؟ فحلاوة الإيمان هي لذة عظمىٰ ، وقد قال إبراهيم بن الأدهم (١٦١هـ) : « لو يعرف الملوك هذه اللذة لجالدونا عليها » .

وثمة حديث يردّد بعض المعاصرين إنكاره على أنه ظلم ومخالفة

لصريح القرآن وإذا وضعتهم أمام الحجة البالغة المقنعة وألقمتهم الحجر ، انتزعوا الحجر ، وأغمضوا عيونهم عن الرد المفحم في الشروح وكتب المشكل ، وعادوا إلى ديدنهم ، فلا يزيدهم الإقناع إلا كثيراً من الامتناع .

وأعني قوله عليه الصلاة والسلام مما يعد استقلالاً بالتشريع : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » ، إذ وجدوه متعارضاً مع أوائل سورة مريم حكاية عن زكريا : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٥ـ٧] وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ ﴾ [النمل : ١٦] ، وتبعاً لهذا الاستنتاج المغلوط قالوا كلاماً كثيراً لظنهم بالوراثة المالية .

والحق أن زكريا عليه السلام كان فقيراً فأي مال يضن به على عصبته ويرغبه في نسله فقد كان نجاراً حِبْراً .

أما الوارث وهو يحيى عليه السلام فقد عرف هو وعيسى عليه السلام بالفقر ، لم يكن لهما أموال ولا منزل يأويان إليه ، وإنما كانا سياحين في الأرض وكان يحيى عليه السلام قد دخل بيت المقدس وهو غلام صغير ، فكان يخدم فيه ، ثم اشتد خوفه ، فساح في الأرض ولزم أطراف الجبال والشعاب . . فكان يخدم نهاراً ، ويسيح ليلاً .

وتروي المصادر المسيحية أنه أراد أن يمتنع عن أكل رغيف كان مع والديه ، فأين الغنى والرفاهية وماذا يرث وقد عاش زاهداً قضى حياته في البكاء ؟!

فالمقصود أن يرث يحيى عليه السلام الحبورة هذا في تفسير الآية ، وفي سيرة يحيى في الإنجيل وأراد زكريا عليه السلام أن يرث من آل

يعقوب الملك ، فلم يُجبه تعالى إلى وراثة الملك ، وأحب زكريا عليه السلام أن تستمر الحبورة في نَسْله .

أما وراثة سليمان لأبيه داود عليهما السلام ، فهي وراثة الملك والنبوة والعلم إذ يرد فيه الآية السابقة ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦] .

ولم يذكر المال في الآية ، بل ذكر ما يتصل بالنبوة والعلم والملك ودلّ على الإعجاز بحوار الطيور ، وكلاهما داود وسليمان عليهما السلام نبيان ملكان ، ويشتمل الملك على السلطان والحكم والسياسة وليس المال ، ولو أراد وراثة المال ما كان في الخبر فائدة لأن الناس يعلمون أن الأبناء يرثون الآباء في أموالهم ، ولا يعلمون أن كل ابن يقوم مقام أبيه في العلم والملك والنبوة .

وقد ذكر بعض المعاصرين أن فاطمة رضي الله عنها قد طالبت الخليفة أبا بكر رضي الله عنه في ميراث أبيها عليه الصلاة والسلام ، فامتنع ولم يعطها أرض فدك التي عدَّها من الصدقة التي تدخل بيت مال المسلمين عملاً بالحديث الذي ذكرناه ، وذكروا عدم اقتناعها بالنص وأنها أوصت أن تدفن ليلاً لئلا يحضر دفنها الخليفة من حنقها عليه ، فدفنت كما أرادت .

والمرجّح الذي لا تعارضه المصادر الصحيحة عن سيرة الخليفة مما بلغ التواتر ، أنه أخبر فاطمة رضي الله عنها بالحديث الذي لم تكن تعلم به ، فكفّت عن طلبها ، فمن حقها الطلب حينذاك ومن حقه بيان الحق .

وكيف يمنع عنها حقاً وهي هي في المقام ، وكان قد أعطى سائر القوم حقوقهم ، ولم يطمع في حلال فكيف يطمع في حرام ، فكل ما حصل أنه جعل الموروث صدقة للمسلمين ، ولم يضع شيئاً في أمواله ولو كان

ما فعله أبو بكر ظلماً لفاطمة رضي الله عنها ، لردّ علي زوجها رضي الله عنه حين صار خليفة ووصياً على أولادها يرثون ما ترث الأمة .

وقال لابنته عائشة رضي الله عنها : « انظري يا بنيةُ ، فما زاد في مال أبي بكر مذ وليت الأمر ، فرديه على المسلمين فوالله ما نلنا من أموالهم في بطوننا من جريش طعامهم ، ولبسنا على ظهورنا من خَشن ثيابهم ، قالت : فنظرت ، فإذا بكُرّ وجَرْد قطيفة لا تساوي خمسة دراهم وحبشية (من الإبل) » .

وترى بعض الناس اليوم ينظرون إلى ما صح عند البخاري وغيره من قوله عليه الصلاة والسلام « القاتل والمقتول في النار » ويقولون : إما أن الحديث غير مقبول ، وهكذا يرمون حديثاً بالوضع في أصح كتب السنة ، وإما أن الصحابة قتلة وقتلى كما وقع في الفتنة المشهورة .

ولكن هذا انحراف بمقاصد النص وتأويل باطل ، إذ لا ينطبق على الصحابة رضي الله عنهم وما جرى بينهم في إثر استشهاد عثمان رضي الله عنه ، فالمقصود أن يدخل النار من استحلّ فعل القتل وهذا الاستحلال يعارض النص القرآني ، والذي بدر من الصحابة نتاج اجتهاد ، ألم يسمعوا علياً رضي الله عنه يقول : « أخطأ إخواننا » يريد جماعة معاوية رضي الله عنه ، فلم ينزع عنهم أخوة الإيمان .

وإننا لا نخالف من يقول بالعدول المجازي وصرف النص عن ظاهره كي يزول الإشكال ولكن لا يترك الأمر على عواهنه للمجاز ، فقد ينافي المقولات في الخبر الصادق ، ومن هذا الخلق الآخر للمخلوقات في الآخرة ، إذ نقرأ في الخبر الصحيح أن النار تتكلم وتشعر وأن أعضاء الإنسان تتكلم وأن القبر يتكلم في عالم البرزخ وغير هذا مما صح وصدق .

ولهذا تؤكد ضرورة الاحتكام إلى العقل والنقل في العدول إلى المجاز فلا بد من الموضوعية العلمية والتوقي ، فقد يكون صرف النصوص عن ظاهرها ناشئاً عن هوى ودوافع ذاتية تنافي الشرع ومصلحة الأمة .

ومن هذا حديث متفق عليه في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « اشتكت النار إلى ربها ، فقالت : يا رب ، أكل بعضي بعضاً ، فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ، ونَفَس في الصيف ، فهو أشد ما تجدون من الحر ، وأشد ما تجدون من الزمهرير » .

يقول الدكتور يوسف القرضاوي[1] : « فينبغي حمل الحديث على المجاز والتصوير الفني الذي يصور شدة الحر علىٰ أنها نفس من أنفاس جهنم ، كما يصور الزمهرير على أنه نفس آخر من أنفاسها ، وجهنم تحتوي من ألوان العذاب أشد الحرارة وأشد الزمهرير » .

وثمة حديث أنكره المعتزلة قديماً ، لكن معتزلة اليوم والخارجين عن الملة لا يذكرونه وهو حديث قدسي اتفق على روايته الشيخان البخاري ومسلم جاء فيه : « وإن تقرَّب عبدي إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

وقد شغب المعتزلة على أهل الحديث لروايتهم لهذا النص ، على أن النص يوهم بالتشبيد بالخلق الإنساني وسمة الانتقال والحركة في المشي والهرولة مما لا يجوز على الله سبحانه وتعالى .

وكان قد بيّن ابن قتيبة رحمه الله أن المقصود حركة بشرية متجلية بالطاعات ، ويقابلها ثواب سريع عبر عنه بالمشي والهرولة وهذا الأسلوب الفني لا يخفى على عربي فصيح .

---

(١) كيف نتعامل مع السنة ص/ ١٧٨ .

وينبغي إبعاد الأحاديث المشكلة عن البسطاء ، أو أنها تذكر مع تأويلها المناسب للشرع ولذلك رأينا الإمام مالكاً يقول : « شر العلم الغريب وخير العلم المعروف المستقيم ، وقد سمعت بعض العوام وقد سمع من بعض دعاة الفتنة حديث : « إن الله يضع قدمه على النار » يقول : وكان حافياً أم منتعلاً ؟ فسبحان الله عما يصفون » .

ينبغي أن تأتي أهمية هذا العلم في ذروة الاهتمامات ، وأن يخصص كل مصنف في علم الحديث لرد هذه المقولات الزائفة لدى اشتداد الحملة على الموروث الإسلامي بقصد التشكيك بمعتقداتنا وأحكامنا ، وبهذا يبطل المرتكز الفكري الذي يعتمده المسلمون في عبادتهم ، إنه غزو فكري يحتاج منا إلى إتقان الرد .

هذه الحملة الشعواء على أنواع ، فمنها أفكار ردّدها مستشرقون وعبارات فارغة من النظر العلمي في عصر العلم ، وهؤلاء لم يكلفوا أنفسهم العناء في قراءة كتب التأويل التي ذكرناها ، وواحد منها يلقم الحجر ، ويبطل دعاويهم .

وثمة فئة أخرى من المستغربين الذين تشبعوا بثقافة من فتات المستشرقين الذين ردّدوا القضايا نفسها ، كما ردّدها هؤلاء المستغربون ، واللوم على هؤلاء أشد إذا ما سامحنا المستشرق الذي لم يستطع الاطلاع على كتب بالعربية ، والخطر منهم أشد لتوقع الثقة فيهم لكونهم من أقوامنا حيث الأسماء الإسلامية .

وصدق حديث رسول الله ﷺ في صحيح البخاري إذ قال عنهم : « هم أبناء جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا » ، فقد يصدقهم القارئ العادي فليس ثمة استعماري ، فهو بإزاء كاتب من أهل الشهادتين يدّعي مصلحة الأمة بغربلة الموروث ، وأهل هذه القبلة أشد خطراً ، خصوصاً أن

الاستشراق زال ، إذ انتهت مهمة المستشرقين وجاءت الأسماء الإسلامية لتدلي بدلوها .

نسأل كل من يتطاول على السنة العودة إلى كتب التأويل التي لم تتجاوز عشرة أجزاء ، ونخبرهم بأن شرّاح الحديث لم يقصروا في بيان التأويل ، فالشروح سياج منيع للحديث النبوي ، وليراجعوا ما ذكره على سبيل المثال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري قبل التطاول على أحاديث البخاري ، هكذا يُفترض في المنهج العلمي الذي يدعونه .

ثم إن العلماء من السلف الصالح قد تصوّروا معارضاً على سبيل الاحتمال ، وذلك لتقوية المعنى وترسيخه في القلب وزيادة الاقتناع به فتقرأ (فإذا قائل قائل فالجواب) ، وقد صار ما ذكروه نافعاً لمعتزلة عصرنا وزنادقته .

والحق أن ادّعاءات التناقض في الحديث النبوي على نوعين من حيث الدوافع ، فهناك ادعاءات ناتجة عن حقد ، وادعاءات ناتجة عن جهل وحب الظهور وضحالة في العلم تتستر بمقولة طه حسين (خالف تُعرف) نسأل الهداية لمن جهل أو حقد ، ونسأله طمعاً بالعلاج ، أن يطلع على كتب المختلف ، فإنها لا تستغرق شهراً في قراءتها ، وبهذا يشفى من مرض مساعدة الغرب على أغلى ما عندنا .

ومن هذه الادعاءات الناتجة عن جهل ما جاء به موريس بوكاي المفكر الإسلامي المجري الذي أعلن إسلامه فهذا إلى جانب ليوبولدفايس اليهودي المجري الذي سمى نفسه محمد أسد وهو صاحب « الإسلام على مفترق طرق » وكذلك المفكر الفرنسي روجيه غارودي هؤلاء مخلصون .

لكنهم بحاجة إلى زيادة معرفة بالشريعة ولكن خطأهم نتج عن عدم

اطلاع لأنهم غربيون ، ولا نشك في إسلامهم كثّر من أمثالهم ، لكن انطلقوا من غير علم ، فلا يصح أن يغدو مفتياً من كان كافراً ، ولا من تسلّم بطاقة جامعية في كلية الشريعة .

فقد تناول موريس بوكاي في كتابه « الأديان السماوية » بعض الأحاديث بالنقد مستنكراً وهي أحاديث في مجال الطب والفلك على الرغم من الإطباق على صحتها عند المسلمين وذلك ليؤكد إعجاز القرآن العلمي لأن أخبار القرآن عن الكون أخبار علمية قاطعة معجزة فرأى ـ غفر الله له ـ أن القرآن لو كان من عند محمد عليه الصلاة والسلام لوقع فيه ما وقع في بعض الأحاديث من الأخطاء العلمية على حد زعمه .

وهذا استنتاج باطل ناشئ عن غفلة ، فالسنة هي وحي أيضاً أو كما سمّاها العلماء وحيٌ غير متلو ، قال عز وجل : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣ـ ٤] ، فلا يجوز الخلط والتناقض على النبوة ، هذا جواب العلماء .

ولكن لو ثبت الحديث في نظر بوكاي لكان وحياً يصدق ولا يناقش ، فينبغي أن نبعثه على التصديق من خلال البرهنة العلمية على مضامين الحديث الفلكية والطبية ، ليس لأن كلاً منهما وحي فحسب ، بل لأن النظر العلمي في النصين القرآني والحديثي يؤكد أنهما وحي .

لذلك نرىٰ من الضروري أن يهرع دارسو اللغة الأجنبية إلى ترجمة مؤلفات مهمة في التراث الإسلامي إلى اللغات الأجنبية ، ونخص منها الإنكليزية التي ينطق بها ما يزيد عن نصف سكان الكرة الأرضية ، وبهذا تصحح مفاهيم مغلوطة كثيرة .

إذ من المؤلم أن نعرف روايات عربية لكُتّاب مغمورين قد ترجمت إلى اللغة الإنكليزية بل إلى الصينية أيضاً ولا تترجم أصول الإسلام ، ولكن

نحمد الله أن سعت بعض المؤسسات إلى سد هذه الثغرة مثل مجمع الملك فهد في السعودية حيث ترجمت معاني القرآن إلى لغات زادت فيما أعلم على ثمان عشرة لغة .

وقد كثرت هذه الأقاويل المعوجة التي لا تقتصر على اللغة العربية إذ شهدت باكستان منذ أول القرن العشرين أكثر من فرية على السنة، ولكثرتها لا نكاد نرى كتاباً في الفكر الإسلامي يخلو من إبرازها والرد عليها .

فمواطن علم المختلف والمشكل لم تعد قاصرة على كتب علوم الحديث ، بل هي أكثر قوة وجدَّة في كتب الفكر الإسلامي مثل « هذه مشكلاتهم » للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي و« الإسلام في قفص الاتهام » للدكتور شوقي أبي خليل وقبل هذا « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » للمرحوم العقاد .

ونذكر هنا مصادر مشرفة لقضايا الاختلاف والإشكال « اختلاف الحديث » للإمام الشافعي ، « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة (٢٧٦هـ) ، « مشكل الآثار » للإمام الطحاوي (٣٢١هـ) ، « شرح معاني الآثار المختلفة المأثورة » للطحاوي أيضاً ، « مشكل الحديث وبيانه » لابن فورك (٤٠٦هـ) ، « مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها » للشيخ عبد الله القصيمي (١٩٣٥م) .

ولا ننكر كتباً صنفها علماء مختصون بعلوم الحديث والفقه نذكر منها « دفاع عن السنة » للدكتور عبد المهدي عبد القادر وكتب أخرى له ، ولأستاذنا فضيلة الدكتور نور الدين عتر ردود قوية مفحمة في كتبه مثل : « السنة النبوية والتحديات » و« منهج النقد في علوم الحديث » وغير هؤلاء من الأفاضل جزاهم الله عن الأمة كل خير .

* * *